السنة الثامنة والثمانون وأربع مئة

قد[١] ذكرنا مسير تُتُش إلى هَمَذان، وكان بعث ولده فخر الملوك رضوان يطلبه بعساكر الشام، فسار ومعه الأمير[٢] نجم الدين إيل غازي بن أُرتق، ووثَّاب بن محمود بن صالح، وجماعةٌ من أمراء العرب، فنزلوا على الرحبة، وبعث تاج الدولة تُتُش يوسف بن آبق[٣] التركماني إلى بغداد في صفر لإقامة الدعوة [له][٤] فلم يلتفت إليه. وقيل: أُخرِجَ إليه حاجبٌ من الديوان، فلمَّا لقيه ضربه يوسف ونزل بدار المملكة، وكان في عزمه نهب بغداد، فاستعدَّ له الوزير، وأحضر صدقة بن منصور وكان نافراً عن تُتُش، فبينا يوسف على عزم السوء جاءه أخوه فأخبره بقتل تاج الدولة تُتُش، فانهزم إلى حلب.

وفي ربيع الأول خُطِبَ لولي العهد أبي منصور الفضل بن المستظهر.

وفي ربيع الآخر خرج الوزير عميد الدولة فخطَّ السُّور على حريم دار الخلافة بأمر المستظهر، وهذا السور مذكورٌ في الملاحم، وأنه يسعى في بنائه رجلٌ أصفرُ من بني تغلب [يعني[٥]] عميدَ الدولةِ ابن جَهير، قال الشاعر: [من الطويل]

إذا طَلَعَ المرِّيخُ من أرض بَابِلٍ ... وقارَنَهُ النَّجمانِ فالهربَ الهربْ
ويبني على الزَّوراء أصفرُ تغلِبٍ ... على الجانبِ الشَّرقي سوراً على شَغَبْ
ويبنيهِ غلمانٌ يُخالطهم نِسا ... وفيهم رجالٌ بالمزاهرِ واللُّعَبْ

ولمَّا خطَّ الوزير السُّور تقدَّم بجباية المال الذي يحتاج إليه من عقارات الناس ودُورِهم، واجتمع أهلُ المحالِّ بالأعلام والبوقات والدَّبادب وأنواع الملاهي والزمور والخيالات، وجرى من المنكرات وإخراق الربعة ما لم تجْرِ به عادة، وساءت السمعة باجتماع الرجال والنساء والمخانيث واختلاطهم، فأنكر علي بن عقيل على الوزير، وكتب إليه كتاباً طويلاً من جملته: كان هذا الخرق الذي جرى بالشريعة عن عمدٍ لمناصبة واضعها، فما بالُنا نعتقد

(١) قبلها في (خ) زيادة كلمة: فيها.
(٢) بعدها في (خ) زيادة كلمة: ابن.
(٣) تحرف في الأصلين (خ) و(ب) إلى: أرتق، وقد تقدم ـ على الصواب ـ قريباً.
(٤) ما بين حاصرتين من (ب) والمنتظم ١٧/ ١٥ .
(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

القرآن ورواية الأحاديث؟ وإذا نزلَتْ بنا نازلةٌ تقدمنا بجموع الختمات والأدعية عقيبها؟ وأين هذا من طبول وزمور مخانيث وخيالات وكشف عورات؟ ومعنى هذا أننا مستهزؤون بحكم الله لا نبالي به، فبأيِّ وجه نلقى محمداً ﷺ؟ وأيُّ حرمةٍ تبقى لنا عند الله؟ ثم إنكَ يا ابن جَهير تقيم الحدود في عتبة باب تأمر بلثم ترابه، ثم تمزج العوامَّ في المنكر المجمع على تحريمه. وذكر كلاماً طويلاً بمعناه، فلم يلتفت إليه، وجرت الأمور على ماهي عليه حتى استدار سور الحريم.

وفي رمضان جرحَ السلطانَ بركياروق إنسانٌ سِجْزيٌّ، فأخذ فأقرَّ على رجلين سِجْزيَّين أنهما أعطياه مئة دينار، فقُتِلَ الرجل، وأُخِذَ الرجلان فقُرِّرا، فطُرِحَ أحدُهما تحت أرجل الفِيَلَة، فقال: خلِّصوني حتى أُقِرَّ. فخلَّصوه، فقال لرفيقه: ياأخي، لا بُدَّ من هذه القتلة فلا تفضح أهل سجستان بإفشاء سرِّهم. فقُتِلا.

وفي ذي القعدة خرج أبو حامد الغزالي من بغداد متوجهاً إلى البيت المقدس زاهداً في التدريس بالنظامية، لابساً خشن الثياب بعد ناعمها، وناب عنه أخوه أحمد في التدريس، وعاد في السنة الثالثة من خروجه منها، وقد صنَّف كتاب «الإحياء»، ثم حجَّ سنة تسعين وعاد إلى بلده.

وقال بعضهم: ولمَّا دخل بغداد قُوِّم ما عليه من الثياب والطوق في عنق بغلته بألف دينار، ثم عاد إلى بغداد وجميعُ ما عليه يساوي ديناراً، فنزل في رباط أبي سعيد الصوفي، واجتمع إليه خلقٌ كثير يسمعون عليه الأخبار.

وفيها اصطلح أهل السنة والشيعة ببغداد، ودخل أهل باب البصرة الكَرْخ، ودخل أهل الكَرْخ إليهم وعملوا الدعوات وتزاوروا، وجاء أهل باب الأزج المختارة، ودخل أهل المختارة إلى باب الأزج، وهذا من العجائب، ما جرى مثلُه ببغداد إلا نُوبة النسوي؛ بغضاً لولاية النسوي عليهم، أما في هذه النُّوبة فبغير سبب ظهر لكنها خطرات[1].

(١) هذه الأخبار بنحوها في المنتظم ١٧/ ١٥-١٨ ، والكامل ١٠/ ٢٥١-٢٥٢ .

وفيها تُوفِّي

تُتُش بن ألب أرسلان

محمد بن داود بن ميكائيل، أبو سعيد، تاج الدولة، كان مقيماً بالشرق، فاستنجده أتْسِز الخُوارَزمي صاحب الشام، فقدم دمشق سنة اثنتين وسبعين وأربع مئة، فقَتلَ أتْسِز، واستولى على دمشق، وامتدَّت أيامه، وهو الذي قتل آق سنقر وبُزان، وسار إلى الشرق وملك هَمَذان، وكان ابنُ أخيه بركياروق بالري قد حشد وجمع ثلاثين ألفاً، وتُتُش في خمسة عشر ألفاً، فالتقوا على الري يوم الأحد سابع [عشر[1]] صفر هذه السنة، وكان تُتُش في القلب مقابل بركياروق، وكان لمَّا قُتِلَ آق سنقر وبُزان أخذ جماعةً من الأمراء فقتلهم بين يديه صبراً، وكان بكجور من أكابر الأمراء، فقتل أولاده [بين يديه] صبراً، وأفلت إلى بركياروق، وكان تُتُش قد نادى في عسكره قبل المصاف بيوم: مَنْ ظفرتم به من عسكر بركياروق فاقتلوه، ومن بقي بعد الحرب فأنا أقتله. فاستشعر العسكر منه، فلمَّا التقوا على الري استأمن أكثرُ عسكر تُتُش إلى بركياروق، وجاء بكجور إلى بركياروق وهو يبكي على أولاده، فقال: قد قتل عمُّكَ أولادي بين يديَّ صبراً، وأنا قاتله بأولادي لآخذ بثأري. فقال: افعَلْ. فلما نشبت الحرب واختلط الناس قصد بكجور تاجَ الدولة فطعنه فألقاه عن فرسه، ونزل [سُنْقُرجه ـ وكان صاحبَ ثأرٍ ـ] فحزَّ رأسه. وقيل: رماه مملوك بُزان بسهم في ظهره فوقع، فقتلوه وأتوا برأسه إلى بركياروق، فطِيفَ به في العسكر، وبعث به إلى بغداد، وانهزم أصحابُه وأمر بركياروق بالكفِّ عنهم، ونادى بالأمان، وأُسِرَ فخر الملك علي بن نظام الملك وزير تُتُش، فعفا عنه بركياروق لأجل أخيه مؤيد الملك وزيره، وكان المستظهر قد هيَّأ الطيار، وأخذ بالحزم، وأعدَّ السفن، ونقل إليها أمواله وأهله لينحدر إلى الأهواز، وخرج عميد الدولة إلى حِلَّة صدقة خوفاً من ظهور تُتُش، فجاء ـ من لُطفِ الله ـ مالم يكُنْ في الحساب، فقُتِلَ تُتُش، وطيف برأسه في إقطاع بغداد، ثم وُضِعَ في خزانة الرؤوس، وعاد ابنُ جَهير ووضع الرأس بين يديه، فقال أبو الفضل عطية يخاطبه: [من البسيط]

(١) ما بين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

ورايـةٍ كـادَ أن يُـعـنـى الـزمـانُ بـهـا ... أمـدَّهـا بـجـيـوش الـرأيِ إمـدادا
ضَـرَبْـنَ بـالـريِّ مـن آرائـه قُـضُـبـاً ... أضحى لـهـا مِـغْـفَـرُ الـتِّـيـجانِ أغـمادا
ومـأتـمٌ قـامَ نـحـوَ الـغـربِ صـارِخُـهُ ... فـعـادَ أيـامُ مَـنْ بـالـغـرب أعـيـادا
ومـعـجـزاتٍ أرادَ الـلـهُ يُـظـهِـرُهـا ... فـي كَـبْـتِـه لـك أعـداءً وحُـسَّـادا

ذكر ما جرى لأولاد تُتُش:

كان ابنُه رضوان قد خرج من الشام بجيش كثيف يريد أباه لينصره، ووصل الرحبة، فبلغه مقتلُ أبيه، فعاد إلى حلب، ففُتِحت له، ووصل [إليه][1] من الفلِّ[2] الذين كانوا مع أبيه أخوة دُقاق وجماعةٌ من خواص أبيه، فأقام بحلب مدةً يسيرة، وكان ساوتكين الخادم والي دمشق، فكاتب دُقاقاً، ووعده أن يُسلِّمها إليه، فسار إليها. ولم يُعلِم أخاه رضوان، وبلغَه مسيرُه، فبعث وراءه عسكراً فلم يلحَقْه، ودخل دمشق، وحسدَه رضوان، فسار إليه بالعساكر، فحصره مدة شهرين فلم يظفَرْ بطائل، فعاد إلى حلب، وبعث دقاق إلى بركياروق يُعرِّفه، فأرسل إليه طُغْتِكين مملوك تُتُش ليدبِّر أمره، فقتل ساوتِكين الخادم، وأقام بدمشق.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: ورد الخبرُ إلى رضوان بقتل أبيه وهو نازل بعانة على الفرات يريد المسير إلى أبيه، فقلق، وسار مُغِذّاً في نفر من غلمانه وخواصِّه إلى حلب، ونزل العسكر، ورآه، وفتح الوزير أبو القاسم النائب بالقلعة لها أبوابَها، فصَعِد إليها، ووصل إليه أخوه دُقاق من ناحية ديار بكر، فأقام بحلب مدةً، ثم راسلَ[3] ساوتِكين المقيم بقلعة دمشق، فأجابه، فخرج في الحال من حلب [ليلاً[4]] مُجِدًّا ليلاً ونهاراً، وبعث رضوان خلفه الخيل ففاتهم، ووصل دمشق، فأجلسه ساوتِكين في منصب أبيه، وأخذ له العهد على الأمراء والعساكر، فاستقام أمرُه، ووردت الأخبارُ بخلاص الأمير ظهير الدين طُغْتِكين أتابِك من اعتقاله عقيب الكسرة، وتوجَّه عائداً إلى دمشق، وخرج

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).
(٢) في (خ): القتلى، والمثبت من (ب)، والفَلُّ: المنهزمون.
(٣) في (خ): أرسل، والمثبت من (ب).
(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

صاحبُه حصن الدولة بختيار شحنة دمشق ليلتقيه، وقد كان تُتُش رشَّح طُغْتِكين في حداثة سنِّه لحجبته، واستنابه في عسكره، وفوَّض إليه أموره أيام غيبته، فأحسن السيرة، وأنصف الرعية، فعَلَتْ منزلتُه، وولاَّه ميَّافارقين وهي أول ولايته، وسلَّم إليه ولدَه دُقاق، واعتمد عليه في تربيته، فدبَّر أمر ميَّافارقين، وأنكى في جماعة عُرِفَ منهم خيانةٌ ومخامرةٌ، فاستقامت أحوالُها، وسار مع تُتُش إلى لقاء بركياروق، وشهد الواقعة، وأسر واعتقل، ثم خلص، فسار إلى دمشق في هذه السنة، فتلقَّاه دُقاق في العسكر وأرباب الدولة، وبالغَ في إكرامه، وردَّ إليه النظر في الإسفهسلارية على حاله، واتُّهم ساوتِكين برضوان فقُتِل، وتزوَّج طُغْتِكين بخاتون أم دُقاق، وأحسن السيرة، وكانَ رضوان يحبُّ دمشق ولا يختار غيرَها، فجمع واستنجد بِسُكْمان بن أُرْتُق، وبرز طالباً دمشق، وقد كان دُقاق غاب عنها في هذا الوقت مع يغي شعبان[1] وإيل غازي بن أُرْتُق، ووصل رضوان بعسكره، ونزل ظاهر دمشق. وقيل: كان ذلك سنة تسع وثمانين، وكان بدمشق وزير دُقاق زين الدولة محمد بن الوزير أبو القاسم، ونفرٌ قليل من العسكر، وانضاف إليهم جماعةٌ من الأحداث، وأغلقوا الأبواب، وصَعِدوا على الأسوار، ورشقوهم بالنُّشَّاب، فرجعوا إليهم من سوق الغنم وباب الجابية والباب الصغير، فأراد أهلُ البلد الخروجَ إليهم ودفْعَهم، فمنعهم بختيار شحنة البلد وأمين الدولة محمد بن الصوفي رئيس البلد، وقاتلوهم على الأسوار، ومنعوهم الوصول إليها.

وجاء حاجبَ رضوان حجرُ المنجنيق وهو قائمٌ يُحرِّض على القتال فقتلَه، وسكنت الحرب، واشتغلوا به، وعادوا إلى خيامهم ولم يتمَّ لهم أمر، وبلغهم أنَّ دُقاق قد عاد بالعسكر، فرحلوا[2] وطلبوا مرج الصفر ليقصدوا القدس، ووصل دُقاق إلى دمشق، وسار رضوان طالباً ناحية حلب.

---

(١) هكذا وقع اسمه في الأصلين (خ) و(ب): شعبان، وفي الروضتين ١/ ٨٧و١٠١، وبغية الطلب ١/ ٤٨١ و٤/ ١٩٥٦ و ٥/ ٢٤١٣ و٧/ ٣٣٥٤ : سغان، وفي الكامل ١٠/ ٢٤٧ ، و تاريخ الإسلام ١٠/ ٤٨٣ ، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٤٧ ، والعبر ٣٣٢ ، وبغية الطلب ١/ ٨٧ : سيان، وفي السير ٩/ ٤٠١ : بسان.

(٢) في (خ): فدخلوا، والمثبت من (ب).

وقيل: إن أولاد تُتُش اقتسموا البلاد، فكانت حلب ومايليها لرضوان، ودمشق وميَّافارقين لدُقاق، وانكفأ يغي شعبان إلى أنطاكية.

رزق الله بن عبد الوهاب[1]

ابن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان بن يزيد بن أُكينة بن إبراهيم بن عبد الله، ويقال: أُكينة هو إبراهيم، وعبدالله بن إبراهيم كان اسمُه عبد اللات، فسمَّاه رسول اللهﷺ: عبد الله، وعلَّمه، وأرسله إلى اليمامة والبحرين ليعلِّمهم أمر دينهم، ودعا له، فقال رسول الله ﷺ: «نزعَ اللهُ من صدرِك وصدرِ ولدك الغِشَّ والغِلَّ إلى يوم القيامة»[2].

وكنيةُ رزق الله أبو محمد التميمي الحنبلي، ولد سنة إحدى وأربع مئة، وقيل: سنة أربع مئة، وقرأ القرآن على أبي الحسن الحمامي بالروايات، وسمع الأحاديث، وتفقَّه على أبي علي بن أبي موسى الهاشمي، وشهد عند القاضي أبي عبد الله الحسن بن علي ابن ماكولا قاضي القضاة، فلمَّا ولي بعده قاضي القضاة أبو عبدالله الدامَغاني ترك الشهادة ترفُّعاً أن يشهد عنده، فجاء قاضي القضاة إليه مستدعياً لمودَّته وشهادته عنده، فلم يشهد ، وكان التميمي قد جمع بين الفقه والقرآن والحديث والأدب والوعظ وحُسْنِ الصورة، فوقع له القبول التامُّ عند الخاصِّ والعامِّ، وجعله الخليفةُ رسولاً إلى السلطان في مهام الدولة، وهو الذي بعثه فأحضر عميدَ الدولة ابنَ جَهير من ميَّافارقين يستوزره، وكان له حلقةٌ في الفقه والحديث والفتوى والوعظ بجامع المنصور، فلما انتقل إلى باب المراتب كانت له حلقة بجامع القصر، وكان يقصُّ في رجب وشعبان ويوم عرفة وعاشوراء عند قبر الإمام أحمد رضي الله عنه، ومن شعره: [من الطويل]

أفِقْ يافؤادي مِنْ غرامِكَ واستَمِعْ ... مقالةَ محزونٍ عليكَ شفيقِ
علِقْتَ فتاةً قلبُها مُتعلِّقٌ ... بغيرِكَ فاستوثقتَ غيرَ وثيقِ
فأصبحْتَ موثوقاً وراحَتْ طليقةً ... فكَمْ بينَ موثوقٍ وبينَ طَليقِ

(١) المنتظم ١٧/ ١٩-٢١ .

(٢) لم أقف على من أخرجه، لكن ذكره ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٨٣ .

وكانت وفاتُه ليلة الثلاثاء خامس عشر جمادى الأولى، وصلَّى عليه ابنُه أبو الفضل عبد الواحد، ودُفِنَ في داره بباب المراتب بإذن الخليفة، ولم يُدْفَن بها أحدٌ قبله، ثم توفي ابنُه أبو الفضل سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، فنُقِلَ معه ولدُه إلى مقبرة باب حرب فدُفنَ إلى جانب أبيه وجده وعمه بدُكَّة الإمام أحمد رحمة الله عليه عن يمينه. سمع خلقاً كثيراً، وروى عنه ابنُ ناصر وطبقتُه، وأجمعوا على فضله وصدقه وثقته ورياسته.

وقال علي بن عقيل: كان التميميُّ سيدَ الجماعة من أصحاب الإمام أحمد يُمناً ورياسةً وحشمةً، وكان أحلى الناس عبارةً في النظر، وأجرأهم في الفُتيا، وأحسنَهم وعظاً.

عبد السلام بن محمد[1]

ابن يوسف بن بُندار، أبو يوسف، القَزويني، شيخ المعتزلة في زمانه، ولد سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة، وقرأ القرآن، سمع الحديث، وقرأ الكلام على عبد الجبار الهَمَذاني، وفسَّر القرآن في سبع مئة مجلدة ـ وقيل: في ثلاث مئة. وقيل: في أربع مئة ـ والكتاب وقفٌ في مشهد[2] أبي حنيفة، وقال: من قرأه عليَّ وهبتُه له، فلم يقرأه عليه أحد.

ورحل إلى مصر، فأقام بها أربعين سنة، وحصل أحمالاً من الكتب، وحملها إلى بغداد، وكان محترماً، إذا دخل على قاضي القضاة الدامَغاني قام له وأجلسه إلى جانبه، وكان ظريفاً، حسنَ العشرة، سمحاً، وكان يخالط بني جَهير، فلما أُخرجوا من بغداد اتُّهم بأنَّ لهم عنده ودائعَ، فوكل به بعض الأتراك، فقيل له: ادْعُ الله. فقال: ماالله في هذا شيء هذا فِعْلُ الظَّلَمة.

ودخل على نظام الملك وعنده أبو محمد التميمي ورجل آخر أشعري، فقال له: أيها الصدر، قد اجتمع عندك رؤوس أهل النار. قال: وكيف؟ قال: أنا معتزلي وهذا مُشبِّهي ـ يعني التميمي ـ وذاك أشعري، وبعضُنا يكفِّر بعضاً. فضحك النظام وقال:

(١) المنتظم ١٧/ ٢١ ، وتاريخ دمشق ٢٦/ ٢١٨ـ ٢٢٠.

(٢) في (ب): مسجد، والمثبت موافق لما في النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٦ .

اجتمعتُ بملحد المعرة ـ يعني أبا العلاء ـ فقال لي: سمعتُ في مراثي الحسين بن علي مرثيةً تُكتَب. فقلت: قد قال بعض فلاحي بلدنا أبياتاً يعجز عنها شيخ تنوخ. فقال: وما هي؟ قلت: قوله: [من الكامل]

رأسُ ابنِ بنتِ محمدٍ ووصيِّهِ ... للمسلمين على قناةٍ تُرفَعُ
والمسلمون بمَنظرٍ وبمَسمَعٍ ... لاجازعٌ فيهم ولا مُتوجِّعُ
أيقظْتَ أجفاناً وكنتَ أنَمْتَها ... وأنَمْتَ عيناً لم تكُنْ بِكَ تهجَعُ
ماروضةٌ إلا تمَنَّتْ أنَّها ... لك تربةٌ ولخَطِّ قبرِكَ موضِعُ[1]

فقال المعري: ماسمعتُ أرقَّ من هذه.

وقال ابن عساكر: سكن طرابلس الشام مدة، وكان يتشيَّع. فقال له ابن البراج متكلم الشيعة: ما تقول في الشيخين؟ فقال: سَفِلان ساقِطان. قال: من تعني؟ قال: أنا وأنت.

وقال أبو محمد بن طاوس: استأذنتُ عليه ببغداد فأذن، فدخلتُ عليه فقال: من أين أنت؟ قلت: من دمشق. فقال: من بلد النصب. فسمعتُ منه شيئاً يسيراً، وكان قد أُقعِدَ، وكانت وفاتُه في ذي القعدة وقد بلغ ستاً وتسعين سنة، ولم يتزوَّج إلَّا في آخر عمره، ودُفن بمقابر الخيزُران عند أبي حنيفة رضي الله عنه.

محمد بن الحسين[2]

ابن عبدالله بن إبراهيم، أبو شجاع، الوزير، الرُّوذراوري، ولد بالأهواز بقلعة كنكور سنة سبع وثلاثين وأربع مئة.

وكان القائم بأمر الله كاتبَ أباه يستدعيه للوزارة وهو بالأهواز، فوصل الكتاب إليه وقد مات.

وكان أبو شجاع قد قرأ الفقه والعربية، وسمع الحديث من جماعة، وصنَّف المصنفات الحِسان، مِنها كتابه الذي ذيَّله على «تجارب الأمم»، ووَزر للمقتدي سنة

(١) هذه الأبيات تُنسب إلى دِعْبِل الخزاعي، وهي في ديوانه ص٣٩٨-٣٩٩ ، ومعجم الأدباء ١١/ ١١٠ـ ١١١.
(٢) المنتظم ١٧/ ٢٢ ـ ٢٧، والكامل ١٠/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٢٧ .

سبع وسبعين، وعُزِل سنة أربع وثمانين، وكان سليماً من الطمع، وكان يملك حينئذ ست مئة ألف دينار، فأنفقها في الخيرات والصدقات.

قال أبو جعفر بن الخرقي: كنت أنا واحداً من عشرة يتولَّون إخراج صدقاته، فحسبتُ ما خرج على يدي فكان مئة ألف دينار، ووقف الوقوف، وبنى المساجد، وأكثر الإنعام على الأرامل واليتامى، وكان يبيع الخطوط المستحسنة ويتصدق بثمنها، ويقول: أحَبُّ الأشياء إليَّ الدينار والخطُّ الحسن، فأنا أخرج محبوبي لله تعالى.

ووقع مرضٌ في زمانه، فبعث إلى جميع ضعاف البلد أنواع الأشربة والأدوية، وكان يخرج العشر من جميع أمواله النباتية على اختلاف أنواعها.

وعرضت عليه رقعة من بعض الصالحين يذكر فيها امرأةً معها أربعة أطفال أيتام وهم عُراةٌ جِياع، فقال لبعض أصحابه: امضِ إليهم، واحمِلْ لهم ما يُصلِحُهم. ثم خلع ثيابه وقال: واللهِ لا لَبِسْتُها ، ولا أكلتُ طعاماً، حتى تعود وتخبرني أنك كسوتَهم وأشبعتَهم. فمضى الرجل وعاد وهو يرعد من البرد.

وقال حاجبُه الخاص: استدعاني ليلةً، وأمرني بعمل قطايف، فعملتُها، فلما حضرت بين يديه [قال: فرِّقها في الفقراء، فحملها الفرَّاشون معي ففرَّقتُها في الأضِرَّاء والفقراء، فقلتُ له في ذلك ، فقال: لمَّا حضر بين يديَّ[1]] ذكرتُ نفوساً تشتهيه ولاتقدرُ عليه، فتنغَّص عليَّ أكلُه، فلم أذُق منه شيئاً. وكان قد ترك الاحتجاب، ويُكلِّم المرأة والطفل، ويحضر مجالِسه الفقهاءُ والعوامُّ، ولا يمنع أحداً،وإذا أفتى الفقهاء بوجوب القصاص على شخص سأل أولياءَ الدم أخْذَ شيءٍ من ماله وأن يعفوا عنه، فإن فعلوا، وإلَّا أمر بالقصاص، وأعطى ذلك المال ورثةَ المقتول الثاني.

ولقد غُمَّ الهلالُ في رمضان، فأمر بإفطار الناس، وأحضر أطباقاً فيها سُكَّر ولوز وأطعم الناس، ثم تبيَّن أن اليوم من رمضان، فندم أشدَّ الندامة، وذبح البقر والغنم، وتصدَّق بصدقات كثيرة، وآلى أن لا[2] يتكلم في الفروع.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) العبارة في الأصل (خ): وإلى الآن لم ، والمثبت من (ب).

وفي أيامه سقطت المُكوس، وألبَس أهلَ الذمة الغيار، وتقدَّم إلى المحتسب أن يؤدِّب كلَّ من يفتح دُكَّانه يوم الجمعة ويغلقه يوم السبت من البزازين وغيرهم، وقال: هذه مشاركة لليهود في حفظ سنتهم[١].

وحجَّ في وزارته سنة ثمانين، فترك في طريقه الزادَ مبذولاً والأدوية، وعمَّ أهلَ الحرمين بصدقاته، وساوى الفقراء في إقامة المناسك والتعبُّد، وكانت به وسوسةٌ في الطهارة ، فكتب إليه ابن عقيل رُقعةً ذكر فيها أخباراً تتعلَّق بالوسوسة، مثل قوله ﷺ: «صبُّوا على بول الأعرابي ذَنوباً من ماء[٢]» و«أمِطْه عنك ولو بإذخرة[٣]» و«يُغسَل [من] بولِ الجارية، ويُنضَحُ [من] بولِ الغلام[٤]» ونحو ذلك، فزالت عنه الوسوسة.

ولمَّا عُزِلَ خرج يوم الجمعة إلى الجامع ماشياً، فانثالَتْ عليه العامة تصافحه وتدعو له ، فقيل للخليفة: إنما قصد الشناعة عليك. فألزمَه بيتَه، وأنكر على مَنْ تَبِعه، فبنى في دهليز داره مسجداً، فكان يؤذِّن ويُصلِّي فيه.

وبعث نظام الملك بإخراجه من بغداد، فأُخرج إلى بلده،فأقام مدة، ثم استأذن الحجَّ، فأذِنَ له، فخرج إلى مكة.

قال أبو الحسن بن عبد السلام: اجتمعتُ به في المدينة، فقبَّل يدي، فأعظمتُ ذلك، فقال لي: قد كنتَ تفعَلُ بي هذا فأحببتُ أن أُكافيك.

وجاور بالمدينة، فلمَّا مَرِضَ مَرَضَ الموت أمر أن يُحمل إلى حضرة النبي ﷺ، فوقف وبكى وقال: يارسول الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ

---

(١) في المنتظم ١٧/ ٢٤ : في حفظ سبتهم.

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (٣٨٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وهو بمعناه في صحيح البخاري(٢٢١) ومسلم (٢٨٤). والذَّنوب: الدلو العظيمة . اللسان (ذنب).

(٣) أخرجه بنحوه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٥٣ ، والدارقطني في السنن (٤٤٧)، والبيهقي في السنن ٢/ ٤١٨ عن ابن عباس ﷺ، مرفوعاً .
وأخرجه البيهقي في المعرفة (٥٠١٥) من طريق آخر عن ابن عباس موقوفاً وقال: هذا هو الصحيح، موقوف، ثم قال عن المرفوع: لا يثبت.

(٤) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ أبو داود (٣٧٧) من حديث علي ﷺ. ويشهد له حديث أبي السمح ﷺ عند أبي داود ـ أيضاً ـ (٣٧٦)، والنسائي ١/ ١٥٨ ، والحاكم ١/ ١٦٦ ، وما بين حاصرتين من مصادر التخريج.

بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وقد جئتُ معترفاً بذنوبي وجرائمي أرجو شفاعتك. وبكى، وتُوفِّي من يومه، ودُفِنَ بالبقيع عند قبر إبراهيم بن رسول الله ﷺ بعد أن صلَّوا عليه في مسجد رسول الله ﷺ، وزوَّروا به الحضرة الشريفة النبوية ـ على صاحبها أفضلُ الصلاة والسلام ـ وذلك في منتصف جمادى الآخرة، وهو ابن إحدى وخمسين سنة.

وكان متبرِّماً بالوزارة لدينه وورعه، وكان في غناءٍ عنها، وما كان ينافس في الدنيا، وكانت أيامُه أحسنَ الأيام، وزمانه أنضرَ الأزمان، ولم يكن في الوزارة مَنْ يحافظ على قوانين الشرع مثله، شديداً في أمور الآخرة والشريعة، سهلاً في أمور الدنيا.

وقام للخلافة في أيام نظره حشمةٌ واحترامٌ عادت سالفَ الأزمان.

وكان أحسنَ الناس خطاً ولفظاً، وما كان يخرج كلَّ يومٍ من بيته حتى يكتب شيئاً من القرآن ويقرأ ما تيسَّر، وما وجبَتْ عليه زكاةٌ قطُّ.

وله شعر حسن، ولم يقُلْ بعد الوزارة سوى هذه الأبيات في الزهد، وهي: [من البسيط]

قد آن بعد ظلامِ الجهل إبصاري ... للشيب صبحٌ يناجيني بإسفارِ
ليلُ الشَّبابِ قصيرٌ فاسْرِ مُبتكراً ... إلى الصباح قُصارى المُدلجِ السَّاري
كَم اغترارِيَ بالدُّنيا وزُخرُفِها ... أبني بناها على جُرْفٍ لها هارِ
دارٌ مآثِمُها تبقى ولذَّتُها ... تَفنى ألا قُبِّحَتْ هاتَيْكَ من دارِ
فما انتفاعي بأوطارٍ مضَتْ سلَفاً ... قضيتُها وكأَنْ لم أقضِ أوطاري
فكنتُ إذْ ظفِرَتْ ممَّا كسبتُ يدي ... لم تعتلِقْ من خطاياها بأوزارِ
ليسَ السعيدُ الذي دُنياهُ تُسْعِدُهُ ... إنَّ السعيد الذي ينجو من النارِ
أصبحتُ من سيِّآتي خائفاً وَجِلاً ... والله يعلَمُ إعلاني وإسراري
إذا تعاظمني ذنبي وآيَسَني ... رجوتُ عفوَ عظيمِ العفوِ[1] غفَّارِ

(١) تحرفت في الأصلين (خ) و(ب) إلى: الذَّنب، وهو تحريف شنيع، والتصويب من خريدة القصر (القسم العراقي) ٢/ ٨٠.

ومن شعره قبل الوزارة: [من السريع]

ما كان بالإحسانِ أولاكُمُ ... لو زرتُمُ مَنْ كان يهواكُمُ
أحبابَ قلبي مالَكُمْ والجفا ... ومَنْ بهذا الهجرِ أغراكُمُ
ما ضرَّكُمْ لو عُدْتُمُ مُدْنَفاً ... مُمَرَّضاً من بعدِ قتلاكُمُ
أنكرتُمونا مُذْ عَهِدناكُمْ ... وخُنْتُمونا مُذْ حَفِظْناكُمُ
لانظرَتْ عيني سوى شخصِكُمْ ... ولا أطاعَ القلبَ إلَّاكُمُ
جُرْتُم وخُنْتُم وتحامَلْتُم ... على المُعَنَّى في قضاياكُمُ
يا قومِ ما أخوَنَكُمْ في الهوى ... وما على الهجرانِ أجراكُمُ
جوروا وخونوا وانصِفوا واعدلوا ... في كلِّ حالٍ لا عَدِمناكُمُ
ما كان أغناني عن المُشتكى ... إلى نجومِ اللَّيلِ لولاكُمُ
سَلُوا حُداةَ العِيسِ هل أُوردَتْ ... ماءً سوى دمعي مطاياكُمُ
أوْ فاسأَلوا طيفَكُمُ هل رأى ... طرفي غفا من بعد مَسْراكُمُ
أحاولُ النَّومَ عسى أنَّني ... في مُستلَذِّ النَّومِ ألقاكُمُ
ما آنَ تقضون غريماً لكُمْ ... يخشاكُمُ أن يتقاضاكُمُ
يستنشقُ الريحَ إذا ما جرَتْ ... من نحوِ نجدٍ أين مسراكُمُ

وقال أيضا من شعره: [من الطويل].

ألا ليتَكُمْ عاينتُمُ بعد مسراكُمْ ... وقوفي على الأطلالِ أندُبُ مغناكُمْ
أُنادي وعيني قد تفيضُ بذِكركُمْ ... أيا جيرتي لِمْ أبعَدَ البَيْنُ مرماكُمْ
ولِم غبتُمُ عن ناظري بعد رؤياكُمْ ... ولِمْ لعبَ البَيْنُ المُشِتُّ وأقصاكُمْ

محمد بن فُتوح[1]

ابن عبد الله بن حميد، أبو عبد الله بن أبي نصر، الحميدي، الأندلسي، من جزيرة مَيُورْقة، ولد قبل الأربع مئة، وسمع الكثير، وسافر إلى الشام ومكة والعراق،

(١) المنتظم ١٧/ ٢٩ ـ ٣٠ ، وتاريخ دمشق ٥٥/ ٧٧ ـ ٨١ ، والأنساب ٤/ ٢٣٣ ، والكامل ١٠/ ٢٥٤ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٢ .

واستوطن بغداد، وكان مختصاً بصحبة أبي علي بن حزم الظاهري، وحمل عنه أكثر كتبه، وقال: أصلُ أبي من قرطبة من محلة يقال لها: الرُّصافة، وسكن الجزيرة ـ يعني الأندلس ـ وصنَّف فأحسن التصنيف، وجمع بين الصحيحين، وكان حافظاً ثبتاً متقناً، وبلغ من حرصه على جمع العلم أنه كان يكتب في الليل في حرِّ بغداد، ويجلس في إِجَّانَةٍ[1] يتبرَّد بالماء، وينسخ وهو على تلك الحالة.

وكانت وفاته ببغداد في ذي الحجة سابع عشره، وصلَّى عليه أبو بكر الشاشي في جامع الخليفة، وكان قد أوصى إلى الأجلِّ مظفر بن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند بشر الحافي، فخالف وصيَّته، ودُفِنَ بباب أَبْرز، فرآه في المنام وهو يعاتبه ويقول: خالفتَ وصيتي؟! فنقله في صفرسنة إحدى وتسعين وأربع مئة، فدفنه في دكة بشر الحافي قريباً منه.

وقال ابن ماكولا: صديقنا أبو عبد الله الحميدي من أهل العلم والفضل، ورد بغداد وسمع أصحاب الدارقطني وابن شاهين وغيرهم، وسمع منه خلقٌ كثير، وصنَّف «تاريخ الأندلس»، ولم أرَ مثلَه في عفَّته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم.

وقال ابن عساكر: وقف كتبه ببغداد على طلبة العلم، فنفع الله بها، وكان حافظاً ديِّناً عفيفاً نزهاً، ومن شعره: [من الوافر]

طريقُ الزُّهدِ أفضَلُ ما طريقِ ... وتقوى اللهِ تأديةُ الحقوقِ
فلا يَغْرُرْكَ من يُدعى صديقاً ... فما في الأرضِ أعوَزُ من صديقِ
سألنا عن حقيقتِهِ قديماً ... فقال سألتَ عن بيضِ الأُنوقِ
فثِق بالله يَكْفِكَ واستَعِنْهُ ... يُعِنْكَ ودَعْ بنيَّاتِ الطريقِ

محمد بن المظفر بن بَكْران[2]

القاضي، الشامي، منسوب إلى الشام، ولد بحماة سنة أربع مئة، وحجَّ سنة سبع عشرة، وتفقَّه ببلده بعد حجِّه، ثم قدم بغداد فتفقَّه على أبي الطيب الطبري، وسمع الحديث، وشهد عند قاضي القضاة أبي عبد الله الدامَغاني سنة اثنتين وخمسين، وناب عنه في القضاء،

(١) في (خ): إجامه، والمثبت من تاريخ دمشق، والإجانة: إناء كبير يُغسَل فيه الثياب.

(٢) المنتظم ١٧/ ٢٧-٢٩، والأنساب ٤/ ٢٢٩، والكامل ١٠/ ٢٥٣. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ٨٥.

وزكَّاه عنده أبو يعلى بن الفراء الحنبلي وابن السِّناني، وكان حسنَ الطريقة، كريمَ الأخلاق، عفيفاً، نزهاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان فيه حِدَّة، لايقبل من سلطان عطية، ولا من صديق هدية، وأقام بمسجد بقطيعة الربيع يؤمُّ بأهله ويُدرِّس ويُقرأ عليه الحديث زائداً على خمس وخمسين سنة، ولمَّا مات ابنُ الدامَغاني أشار الوزير أبو شجاع على المقتدي بتقليده القضاء فامتنع، فمازالوا به حتى تقلَّده في رمضان سنة ثمان وسبعين، وخُلِعَ عليه، وقُرئ عهدُه، وشرط أن لا يأخذ على القضاء رزقاً، ولا يقبل شفاعةً، ولا يُغيِّر ملبوسه، فأُجيب إلى ذلك، ولم يتغيَّر عليه حالُه في مأكل ومشرب، وكان يتولَّى القضاء بنفسه ولا يستنيب ولايحابي مخلوقاً، فلمَّا أقام على الحقِّ نفرت عنه قلوب المبطلين، ولفَّقوا له معايبَ لم يلتصِقْ به شيءٌ منها، فسخط عليه المقتدي، ومنع الشهود أن يحضروا مجلسه، فلم يتأثَّر، ثم علم المقتدي باطنَ حاله، فرضي عنه بعد سنين وشهوراً، وعاد الشهود إلى مجلسه، واستقامت أحوالُه، ولم يجدوا من يقوم مقامَه.

وادَّعى عنده بعضُ الأتراك على رجل دعوى، فقال: ألكَ بينة؟ قال: نعم، المشطب بن محمد الفرغاني ــ وكان من فحول المناظرين، وكان يلبس الحرير ويتختَّم بالذهب ــ فقال التركي: فالسلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك يلبسان الحرير ويتختَّمان بالذهب؟ فقال القاضي: لا جَرَم لو شهدا عندي على باقة بقلٍ ما قبلتُ شهادتَهما.

وكانت وفاتُه في شعبان، ودُفِنَ عند أبي العباس بن شُريح قريباً من الكَرْخ، وكان ورعاً ثقةً صدوقاً.

منصور بن نصر الدولة بن مروان

صاحب ميَّافارقين، قد ذكرنا سيرتَه، وأنه استولى على الجزيرة فمات بها، وحُمِلَ إلى آمِد فدُفِنَ بقبَّةٍ بَنَتْها له زوجتُه ستُّ الناس بنت عميد الأمة سعيد بن نصر الدولة، ودُفِنت بها أيضاً، وهي مُطلَّة على دجلة.

فصل ولاية بني مروان الدياربكر:

أول ولايتهم سنة ثمانين وثلاث مئة، واستولى ابنُ جَهير على بلادهم سنة تسع وسبعين وأربع مئة، وتُوفِّي منصور في هذه السنة، فكانت مُدة ولايتهم نيفاً ومئة سنة.

وأعيان ملوكهم أولهم باد الكردي ظهر سنة أربع وسبعين وثلاث مئة، وبعده مروان هو جدُّهم ملَكَ سنة ثمانين وثلاث مئة، وملك بعده ولده أحمد، فأقام إلى سنة ثلاث وخمسين وأربع مئة، وتوفي [وقام][1] بعده ولده نظام الدين وولده سعيد ومنصور وهو ابن نظام الدين، وقد ذكرناهم.

السنة التاسعة والثمانون وأربع مئة

فيها حكم المُنجِّمون بأن يكون طُوفانٌ مثلَ طُوفان نوح عليه السلام، وكان ببغداد ابن عيشون المنجِّم، فبلغه فقال: أخطأ المُنجِّمون، طوفان نوح كان قد اجتمع في برج الحوت الطوالع السبعة، والآن فقد اجتمع ستة، زُحَلْ لم يجتمع معهم، ولكني أقول: إن بقعةً من البقاع يجتمع فيها عالَمٌ كثيرٌ فيغرقون. فقيل: ما ثَمَّ أكبرُ من بغداد ويجتمع فيها مالم يجتمع في غيرها وربما كانت هي؟ فقال ابن عيشون: لا أدري غيرَ ما قلتُ. فأمر الخليفةُ بإحكام المُسَنَّيات وسدِّ القوارح، وكان الناس يتوقعون الغرق، فوصل الخبر بأن الحاج نزلوا في وادٍ عند نخلة، فأتاهم سيلٌ عظيمٌ فاجتاح جمالهم، وأخذ الرجال والنساء، وما نجا إلَّا من تعلَّق برؤوس الجبال، فخلع الخليفة على ابن عيشون، وأجرى له جرايات، وأمن الناس الغرق[2].

وفي شعبان استوحش جناح الدولة حسين أتابك من رضوان، وكان تزوج والدة رضوان، وخاف على نفسه منه، ففصَلَ[3] إلى حمص في خواصِّه وعسكره، وكان قراحة يأتيه بها، فسلَّمها إليه، فنقل أهلَه إليها، وشرع في تحصينها وإحكام قلعتِها، وأمن على نفسه، ووصل عُقيب انفصاله الأمير يغي شعبان صاحبُ أنطاكية إلى حلب، وشرع في الأمر والنهي، وجاءه عسكره، وبرز هو ورضوان من حلب إلى شَيْزَر قاصدين دمشق، ثم وقع الخلاف بين مُقدَّمي العساكر فتفرَّقوا، وعاد رضوان إلى حلب، ويغي شعبان إلى أنطاكية.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) الخبر في المنتظم ١٧/ ٣١ ـ ٣٢.

(٣) فصل: خرج. المعجم الوسيط (فصل).